التعبير الإبداعي بين تداعيات الخمر ونرجسية البطولة والفخر في شعر أَبي محجن الثقفي

ديلم كاظم * ملاذ ناطق**

تأريخ التقديم: 2019/2/25 تأريخ القبول: 2019/5/26

المستخلص:

عندما يأخذ الشاعر بزمام الإبداع، ليصنع منه حليّة تعبيرية ساطعة في بناءً لنص، يكون قد خرق المألوف وجاء بالمنشود البعيد المنال؛ ليحقق بذلك غاية الجمال والجودة.

ولعل أبا محجن الثقفي هو شاعرنا المنشود الذي سار على جادة الإبداع، فصدح صوته مؤثراً في محيط قلق، شهد تصادم حاد من أجل الوجود، وتعزيز المبادئ الحقة التي أكد عليها الإسلام.

كل ذلك دفع بنا نحو تذوق فنه وسبر أغوار صنعته، وتسليط الضوء على معاييره الإبداعية في بناء نصه لتبيان طبيعتها ومقوماتها، فشكل عمله تركيباً فنياً ذا خصوصية برزت واتضحت بصورة أشمل كونه رجل وفارس شاب سلوكه منحى يؤثم عليه الدين الاسلامي الحنيف، ويعاقب عليه القضاء الإسلامي في زمانه.

فكان شاعرنا باب معطاء للفروسية والفداء من أجل الدين والأرض والعرض، وفي الوقت نفسه كان مثار جدل لسلوكه المنافي للدين الاسلامي وتعاليمه السمحاء، وقد جسد شعره ناحيتي حياته تجسيداً حيّاً مميزاً فكان لِزاماً علينا تصفح ديوانه ودراسة حيثياته لأنه مثّل بصمة مميزة، ومفارقة أدبية عملاقة في ساحة الشعر العربي الكبيرة.

الكلمات المفتاحية : عشق؛ لطيف؛ إحساس

نسبه:

* أستاذ مساعد / جامعة بغداد .
** أستاذ مساعد / جامعة النهرين .

هو أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عُمير من بني عَقدة ابن عَنزة بن عوف بن ثقيف. وكان شاعراً شريفاً، قد فَضّلت أبياته القافية على كل شعر قيل في معناها[1].

المعالجة:-

لقد جاءت المعالجة في ثلاثة محاور رئيسة وضح كل محور منها ناحية معينة من حياة الشاعر ونشاطه الإنساني، من خلال آليته الشعرية المميزة، وهي:-

اولاً: التجسيد الإبداعي في شعر البطولة والفخر.

الوقوف على شعر البطولة والفخر عند أبي محجن الثقفي يفتح احتمالات متعددة تقيدها العلاقات الشكلية بين الأبعاد الدلالية والتداولية المؤطرة بظاهرة خطابية تواصلية ملفتة للإحساس ومحفزة للفكر، وموجهة المتلقي نحو الوقوف والبحث في حيثيات هذه النصوص للتعرف على الأشكال التعبيرية وسياقاته في نسج الألفاظ داخل الإطار الإيقاعي المعروف للشعر، خاصة و"إنه واقع تحت تأثير المتغير الشخصي كما يراه البعض – شرب الخمر – في عملية اتخاذ القرارات البطولية وتجسيدها عملياً على أرض الواقع، ومن ثم صنع الخطاب الشعري ضمن مفهوم تشكيلي معماري مميز ووفق قيمة معيارية عالية.

لذا جاء بحثنا في سبر أغوار هذا الغرض الشعري عند أبي محجن الثقفي، إذ قال مخاطباً امرأته:-

لا تسْألي الناسَ عن مالي وكثرته وسائلي القومَ عن ديني وعَنْ خُلُقي[2]

لم يغادر الشاعر التقليد المعروف في بناء مطلع القصيدة العربية، إذ نجده يخاطب امرأته، ليخبر العالم من خلالها كيف هو دينه وخلقه.

ويواصل نظمه قائلاً:-

(1) ديوان أبي محجن الثقفي، صنعه أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، نشره وقدّم له: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى – 1970م ، ص15.
(2) ديوان أبي محجن الثقفي، ص15.

قد يعلمُ الناسُ أنّا من سراتهمُ إذا سما بصرُ الرِّعديدة الفَرِق[1]

يؤكد الشاعر إنهم من أخيار الناس وساداتهم، فهم الثابتون في الحروب المدافعون عن الأرض والعرض، في يوم يفزع فيه الناس، وخاصة الجبان منهم الرعديد، ونراه أضاف حرف الهاء الى نهاية اللفظة للمبالغة وإمعاناً لجبن الجبان. الذي يشخص بصره يوم الوقيعة.

وقال ايضاً:

أُعطي السِّنان غداةَ الروْع غنلَتهُ وعاملَ الرُمْح أروْيهِ من العَلق[2]

النِحْلة العطية وفي العرق تقليد كريم، إذ يعطي رجلٌ رجلاً ناقة ينتفع بمنافعها ثم يعيدها الى صاحبها. فكان عطاء أبي محجن للسنان من هذا التقليد، إذ أعطاه وأرواه من العلق، وهو كثرة الدم العالق في فم الجُرح.

وقال أيضاً:

وأطعنُ الطعنةَ النَجْلاء عن عُرُضٍ تَنْفي المسابيرَ بالإزْبَاد والفَهَق[3]

يخبرنا الشاعر كيف إنه يتحين الفرصة ليختلس طعنة الى ناحية خصمه – وتحين الفرصة لأخذ ناحية مناسبة محمودة عند العرب – فتكون طعنته واسعة كثيرة النزف، غزيرة الدم، لا يعرف غورها إلا المتمرس المُجيد في القتال، وتسمى عند ذاك بالنجلاء.

ونتابع قوله أيضاً:-

عَفُّ الإياسَةِ عما لستُ نائله وإنْ ظُلِمْتُ شديدُ الحقدِ والحَنَق[4]

يخبر الشاعر عن صفاته التي عُرف بها، فهو عفيف اليد والقلب، راجح العقل، لا يطمع في شيءٍ لا يمكنه الحصول عليه، وهذا لا يشعرهُ باليأس أو التذمر من قدره ونصيبه في الحياة إزاء عجزه عن الحصول على أمانيه.

---

(1) ديوان أبي محجن الثقفي، ص16.

(2) المصدر السابق نفسه، ص17.

(3) ديوان أبي محجن الثقفي، ص18.

(4) المصدر السابق نفسه، ص19.

وقال أيضاً:

وأكشِفُ المأزقَ المكروبَ غُمّتُهُ وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العُنُق[1]

هو الفارسُ الذي حضوره يكشف كروب المعارك ويزيل الغم والهمّ عن ناسه في شداتهم ومأزقهم، فهو رجل الملمات والشدائد تشهدُ له بذلك الوقائع والواقع.

ثم يردفُ قائلاً:

قد يقتر المرء يوماً وهو ذو حسبٍ وقد يثوب سوامُ العاجز الحمق
قد يكثرُ المال يوماً بعد قلته ويكتسي العود بعد الجدب بالورق
وقد أجود وما مالي بذي فنعٍ وقد أكرُّ وراء المحجرِ البرق[2]

في الأبيات المتقدمة يُعطي الشاعر صورة لحياة الناس الحقيقية وتقلبات الدهر فيهم. فقد يُعدم المال او يقل عند رجلٍ كان ابن عز وجاه، ويكثر في يد الفقير الأحمق الذي لا يعرف قيمة ما في يده.

وقد يكون المرئ كريماً جواداً، لكنه لا يملك ما لا يُذكر، والجود كما يراه الشاعر لا يقتصر على المال والإنفاق، وإنما حقيقة الجود بالنفس وقت المعارك والشدائد التي تشخُص فيها الأبصار ويحار عندها الرجال، حيث ضيق الواقع والصدر والخطر المُحدق من كل جانب، فإذا بالجواد الكريم يقود المعارك، ويأتي بالنصر، وينقذ الأرض والأهل.

هذه الأبيات تجسد مفارقة حياتية قدرية حقيقية لواقع الناس وحياتهم في كل عصر وزمان، وقد أجاد الشاعر في إبرازها لامعةً ساطعة مدوية.

وختم قائلاً:

وأهجرُ الفعلَ ذا حُوْبٍ ومنقصةٍ وأتركُ القولَ يُدْنيني الرهق[3]

(1) ديوان أبي محجن الثقفي ، ص19.
(2) المصدر السابق نفسه، ص20- 21.
(3) المصدر السابق نفسه، ص22.

يخبرنا الشاعر إنه ينفر من كل فعل قد يأتي بالإثم والنقيصة وسوء السيرة، وكل قول يصدر عني قد أُوصف بسببه بالحمق وخبث الطبيعة، ويقربني من كل ما ترفضه السجية الانسانية السليمة، والعادات العربية الأصيلة.

هذا هو أبي محجن الثقفي كما يصف نفسه، وتؤكد المصادر انه صادق القول والفعل.

ولعل وجود مثل هذا النص الذي يتصف بالجودة والأصالة والتألق وعمق المروءات والشهامة العربية في ديوان شاعرٍ عُرف عنه تعاطي الخمر والمجون يجعله مثار بحث وتساؤل، فهو نص يؤهله ليكون شاعراً فحلاً مميزاً، بل إنه أشعر الناس. وما ذكرته المصادر عن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) يؤكد ما تقدم من قولنا، إذ انه (رض) كان "يفضل هذه الأبيات وتهيم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعليّ (كرم الله وجهه): من أشعر الناس؟ قال: الذي أحسنَ الوصفَ، وأحكم الرصفَ، وقال الحق. قال: ومَنْ هو؟ قال: أبو محجن في قوله: "لا تسألي الناس عن مالي وكثرته"[1]. قال: أيّدتني يا أبا الحسن أيّدك الله. فمازلت مؤيداً في كل خير. وهذا أول ما قيل أيّدك الله. ثم قال له: قد صدق في كل ما ذكر، لولا آفة كانت في دينه من حبه الخمر، ولقد تركها آنفاً، والأنفُ من الكرم، والكرامُ من الإيمان، لقوله تعالى: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}[2]، فقال عمر رضي الله عنه: يأبى الله يا بني هاشم إلا أن يسودكم في الدين والدنيا"[3].

مما تقدم يؤكد التجسيد الفعلي للإبداع الشعري في نص شاعرنا المميز، الذي قال عنه الشعبي: "فلم يكن في الحي فتى لا يحفظ هذه الأبيات فتُعدُ له مروءة".

لذا من السليم جداً نرى اندفاع العقل البشري الصحيح والفطرة النقيّة في أثر هذا النص لما جسده من قدرة على إثارة الأحاسيس والعواطف وتحريك القلوب عن مواضعها، فألفاظها تتميز بخوصيتها وجمالية وقعها في الأسماع، كما إن طرائق

(1) ديوان أبي محجن الثقفي ، ص22.

(2) سورة الحجرات: آية 13.

(3) ديوان ابي محجن الثقفي: ص22.

تعالق ألفاظها، واتساق اجراس حروفها في الآذان، جعل منها ألفاظاً معبرةن عن وظائفها ومقاصدها حاضنة المكون النحوي التركيبي، والمكوّن البلاغي الدلالي في الوقت نفسه.

لذا فهو عن جدارة نص يمثل وعاء المروءة العربية الأصيلة والفكر الإسلامي النقي، كما إنه نص يلبي حاجات المجتمع العربي الإسلامي في زمانه وفي كل زمان. وهذه المروءات هي هويتنا كما هي لغتنا.

فالنص تتجدد فيه وظيفة الدلالة عند القراءة المتكررة، لأنها وظيفة حاجوية اجتماعية قد تتخذ مساراً تكاملياً في مفهوم دلالة معينة أخلاقية عربية أصيلة، تتواصل مع الحياة وسلوكيات الإنسان، فهو نص مفتوح على المدرك الأخلاقي العربي، والمدرك الأخلاقي الاسلامي وعلاقتهما مع الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية، ويجسد جدلية العلاقة بين الدين وما وجد بالفعل على أرض العرب من سلوكيات وأخلاقيات قبل الإسلام[1].

وجاء في الأغاني إن عمر بن الخطاب (رض) نقم عليه شُربه الخمر، فسيّره الى حَضَوْضى، وهي جزيرة في البحر، وبعث معه ابن جهراء، فراغ منه على شط البحر ولحق بسعد بن أبي وقاص. وقال حينها:

الْحَمْدُ للَّهِ نَجَّانِي وَخَلّصَنِي ... مِنَ ابْنِ جَهْرَاءَ وَالْبُوصِيِّ قَدْ حَبَسَا
مَنْ يَرْكَبِ الْبَحْرَ وَالْبُوصِيُّ[2] معترضاً ... إِلَى حَضَوْضَى فَبِئْسَ الصَّاحِبُ الْتَمَسَا
أَبْلِغْ لَدَيْكَ أَبَا حَفْصٍ مُغَلْغَلَةً ... عَبْدَ الإِلَهَ إِذَا مَا غَارَ أَوْ جَلَسَا[3]

(1) الأغاني: ج14، ص289.
(2) البوصري: المركب، وهي لفظة فارسية معرّبة.
(3) ديوان ابي محجن الثقفي: ص24.

إنّـــي أكـــرُّ علـــى الأولـــي إذا فزِعـــوا يوماً واحسبُ تحـــتَ الرايـــة الفرســـا
أغشى الصـــياحَ وتغشـــاني مُضـــاعفةُ من الحديدِ إذا مـــا بعضُـــهم خنســـا[1]

في الأبيات الثلاثة الأولى يُعرف الشاعر بحالته في رحلة النفي التي أمر بها عمر بن الخطاب (رض)، ثم ينتقل لوصف حاله يوم الوقيعة وكرّهُ على الأعداء مهما كانت ضراوة الحرب، هو في مقدمة كتيبة الفرسان التي تضم نخبة الرجال المقاتلين، فإذا فزع الناس يوم اللقاء، تبقى الراية تحت وصايته مرفوعة خفاقة؛ لفروسيته ومقدرته في الحرب وإقتداره في منازلة الفرسان.

يؤثر في صياح العركة وهياجها، ويتلبس ذلك الصياح المخيف لشجاعته وقد ارتدى درعاً صُنعت حلقاته بصورة مزدوجة زيادة في المتانة وجودة الصنع، ويخوض الوقيعة التي يتأخر الناس عن خوضها؛ لبسالته.

تسمع في كلماته صوت الإرادة، الفردية، صوت الثبات في المعارك والانتماء الى حالة الفروسية المطلقة، وهو نقيض الباطل، ونرى الشاعر الفارس ينتمي لمجموعة قواعد ملزمة، تنظم سلوكه وحياته وتُعيد ترتيب علاقاته مع السلطة والناس بطريقته الخاصة. حتى لو استدعى الأمر عصيان أوامر السلطة.

وعندما تواقع القوم في القادسية، وكان أبو محجن في محبسه، نظر الى حالة الناس، وقد أشرفوا على الهزيمة، فقال:-

كَفَى حَزَنًا أَنْ تُطْعَنَ الْخَيْـلُ بِالْقَنَـا وَأُصـــبحُ مَشْـــدُودًا عَلَـــيَّ وَثَاقِيَـــا
إِذَا قُمتَ عَنَّـــانِي الْحَدِيـــدُ وَأُغْلِقَـــتْ مصارعُ مِـــنْ دُونِـــي تُصِـــمُّ الْمُنَادِيَـــا
وقد كنـــتُ ذا مـــالٍ كثيـــرة وإخـــوةٍ فأصبحتُ مـــنهم واحـــداً لا أخـــا ليـــا
فإنْ مُتُّ كانت حاجـــةً قـــد قضـــيتُها وخَلّقـــتُ سَـــعْداً وحـــدَه والأماتيـــا [2]

(1) المصدر السابق نفسه، ص26.

(2) ديوان ابي محجن الثقفي: ص37، 38.

يصفُ الشاعر لحظات لا يستطيع لمسها بطريقته التي تنمُّ عن الفروسية والبسالة، ولا يستطيع العيش بداخلها مدة أطول مما عاشها، لأن المعركة هي المكان الوحيد القادر على إحياء وجوده بنضارة وجمالية لا نجدها عند أحد غيره.

تلك اللحظات الموصوفة في مقطعته المتقدمة الذكر تشع بفيضٍ من الأحزان والآمال، لدرجة تُعمي قلوبنا بفعل جنون الإحساس الذي يؤطرها، فهو في كمين – محبس – منعه من ملء صخب المعركة بلمسته المعهودة، التي تُطيح برؤوس الأعداء، وتكتم أنفاس الأصدقاء، هنا تكمن كارثيته في اللاوعي والوعي في آنٍ واحد.

شاعر أقدامهُ راسخة في أرض المعركة وإن كان في الحبس، وذلك لتطرفه وفردانيته في خوض المعركة، والشعور بها، وإنْ لم يكن فيها، والخروج عنها إن خاضها منتصراً مفتخراً بأرومته وعقيدته.

وبالكمية الغرابة التي تصطدم بها، عند كل لحظة شعورية شعرية مرتدة عن منسوبها العاطفي العالي، وكمية الوجع الذي يغمرنا في كل لفظة نقرأها، فالنص وما ينبعث عنه من مشاعر فياضة وأحزان مريرة تتحدث بصوتٍ عالٍ عن شهامة هذا الفارس ومروءته تجاه قضايا أمته ومصيرها الذي كان على المحك في هذه الأثناء.

ونختم مبحثنا هذا بمقطعة تفيض شجاعة وشهامة، وهي تشع إجادة وسحراً، ففيها إطلالة كلاسيكية راقية وفخمة من الفخر والجود، تتحدث عن نفسها، وتحفر بألفاظها مكلاناً في الأسماع والقلوب.

قال الشاعر:

لمـــا رأينـــا خـــيلاً محجلـــةً ... وقـــوم بغـــيٍ فـــي جحفـــلٍ لجـــبِ
طرنـــا إلـــيهم بكـــل ســـلهبةٍ ... وكـــل صـــافي الأديـــم كالـــذهبِ
وكـــل عراصـــةٍ مثقفـــةٍ ... فيهـــا ســـنانٌ كشـــعلة اللهـــبِ
وكـــل عضـــبٍ فـــي متنـــه أثـــرٌ ... ومشـــرفي كـــالملح ذي شـــطبِ
وكـــل فضفاضـــةٍ مضـــاعفةٍ ... مـــن نســـج داود غيـــر مؤتشـــبِ
لمـــا التقينـــا مـــات الكـــلام ودا ... ر المـــوت دور الرحـــى علـــى القطـــبِ

فكلنـــــا يســـــتليص صـــــاحبه عـــن نفســـه والنفـــوس فـــي كـــربِ
إن حملـــوا لـــم نـــرم مواضـــعن وإن حملنـــا جثـــوا علـــى الركـــبِ[1]

ثانياً:

الإبداع الشعري في صناعة الخمريات

كان من المهم أن نعالج البصمة الإبداعية في شعر الخمريات لأبي محجن الثقفي، لأنها تمثل ركيزة مهمة من ركائز ديوانه وعمله الإبداعي كما إنه الغرض الذي سُلط الضوء عليه أكثر من غيره، وأثار ضوضاء كبيرة، لدرجة أصبغ الشاعر بصبغة الرجل الذي لا يقوى على مفارقة الخمر، ولا يُجيد إلاّ القول في الخمر.

والحقيقة يشهد هذا الغرض عند الشاعر بصمة استثنائية تتمثل في لقاء الصورة الإبداعية مع التحفيز لريادة شعر الخمريات في زمنٍ يرفض الخمر ويُجرم من يتعاطاه، فمثّل مبادرة رائدة انسجاماً مع خصوصياته الشخصية من ناحية، والانسجام مع الواقع العقائدي المعاش من ناحية اخرى، فجاء بمفارقة اجتماعية واقعية أغنت تجربته الشعرية في هذا المجال، وأدعمت وجوده الإبداعي المتألق على الرغم من تحفظ المتحفظين.

وقال في مقطعته التي مثلت مركزية الجدل في شعره بصورة عامة والخمريات بصورة خاصة:

إذا مُـــت فـــادفنّي الـــى أصـــل كرْمـــةٍ تـــروي عظـــامي فـــي التـــراب عروقُهـــا
ولا تـــــدفنّي بـــــالفلاة فـــــإنني اخـــافُ إذا مـــا مُـــتُّ أنْ لا أذوقهـــا[2]

لا أروع من هكذا تزاوج لفظي، أوجد لنا تصوير عشقي، لطيف الإحساس، متين الوصل، بألفاظٍ بسيطة سلسة متداولة، إلا إنّها عميقة الغور عند النسج.

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص51.
(2) المصدر نفسه: ص48.

فالموت عند الشاعر ليس نهاية العلاقة بينه وبين الخمر، بل إنّهُ وصل دقيق من نوع آخر، فهو بموته قد عاد الى أصله التراب الذي بدوره يضم جذور الكرمة وأصلها، فهو عاشق لرفقة هذه الكرمة. نافر من الدفن في البرية البعيدة التي لا زرع فيها ولا مصاحبة، بل هي هجر في هجر، وهو لا يقوى على الهجر حتى في مماته.

وقال أيضاً:-

أُباكِرُهـــا عنـــد الشـــروق وتـــارةً يُعـــاجلني بعـــد العشـــيّ غَبُوقهـــا
وللكـــأسِ والصـــهباْ حـــقٌ مـــنعِّمِ فمـــن حَقهـــا أنْ لا تَضـــاعَ حقُوقُهـــا[1]

موضعه عند جذور الكرمة وأصلها يمكنه من شرب الخمرة ساعة يشاء غداة أو عشية. لأن لكأس الخمر حقٌ على منْ يعاقرها ولا يحق له تضييعُ تلك الحقوق.

وقال أيضاً:-

أقوِّمُها زِقّاً بحقٍّ بذاكمُ يُساقُ إلينا تجْرُها ونسوقُها[2]

فالإبل التي تحمل زق الخمر، صغيرة السن لا تتجاوز الثلاث سنوات، يسوقها مالكوها إلينا، لأننا كرام معهم ونزيدهم ربحاً.

وقال:-

وعندي علـــى شـــرب العُقـــارِ حَفظيـــةٌ إذا مـــا نِســـاءُ الحـــيّ ضـــاقتْ حُلُوقُهـــا
وأعْجِلـــنَ عـــن شـــدٍّ المـــآزر ولهـــاً مُفجّعـــة الأصـــوات قـــد جـــفَّ ريقُهـــا
وأمنـــعُ جـــارَ البيـــت ممـــا ينوبـــهُ وأكـــرِمُ أضـــيافاً قِراهـــا طُروقُهـــا[3]

وإن شرب شاعر الخمر، لكنه مازال على عاداته العربية الأصيلة فهو المدافع الجسور عن حمى القبيلة والأهل عند الغارة، كما إنه محافظ على عرضه

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص49.
(2) المصدر نفسه: ص49.
(3) المصدر نفسه: ص49-50.

وداره من أي شر قد يتربص به، كريم مضياف مع أضيافه، في أي ساعة جاءوا وإن كان ليلاً.

استراتيجية التوازن الدقيقة هذه، تمثل انسجام نفسي عند الشاعر على أرض الواقع، وهي تمثل ناحية معينة من حياته كأنهما قانون عمل أو قانون حياة.

وقد تلتبس الأفكار وتختلط، كيف جاء الشاعر بهذا المزيج المتناقض من معاقرة الخمر من جهة، والرجولة والشهامة من جهة أخرى، إلاّ إن الالتفات الى السياق وخاصة السياق المقامي للألفاظ من ناحية، ومقام الشاعر في قبيلته ومجتمعه من ناحية أخرى.

فالوقوف على الجملة دون تسليط الضوء على الملفوظ من كل زوايا يجعل الدلالة المقصودة منتمية الى الواقع الاجتماعي المعاش والمعاناة النفسية للشاعر أكثر من انتمائه الى النظرية.

فالألفاظ هنا تفتح لنا نوافذ احتمالات متعددة تخضع للمقام الدلالي للفظة مقدماً علاقات شكلية بين الاشارات النصية والبُعد التداولي للفظة المستعملة، فنص الشاعر ملائماً للبعد التواصلي بين الشاعر والمتلقي من ناحية، وبين المتلقي والنص من ناحية أخرى، فكان الدمج الذي قدمه الشاعر في نصه بين المكون النحوي التركيبي والمكون البلاغي خاضع لنشاط الشاعر النفسي، ورغباته الملحة، وتمكنه من ناحية الإبداع التي أفرزت سياقات تعبيرية ذات مسار متكامل من حيث المقصود الدلالي، والبعد التواصلي للنص، فجاء النص ذات صوغ مطواع وتكتيك عالي وإتقان محوري للفكرة التي أفرزت مواجهة حتمية مع المجتمع والواقع المعاش.

فالتشكيل المعماري لمفهوم الخطاب الشعري الذي جاء به الشاعر كان حضارياً وذو قيمة نظرية نقدية، وأسلوب صياغة يبقى محط نظر للقارئ والباحث على حدٍ سواء.

وقال أيضاً في الخمر، وما فرضه الإسلام من تحريم على تعاطيه:-

إن كانت الخمر قد عزت وقد مُنعتْ ... وحال من دونها الإسلام والحرجُ
فقد أباكرها رِياً وأشربُها ... صرفاً واطربَ احياناً فامتزجُ
وقد تقوم على رأسي مغنيّة ... فيها إذا رفعت من صوتها غنجُ
فتخفض الصوت أحياناً وتخفضهُ ... كما يطن ذباب الروضة الهزجُ [1]

يخبرنا الشاعر من خلال مقطعته، إنّ الخمر قد تقل وتمنع من التداول في المحال والأسواق لتعاليم الإسلام، ويصبح مَنْ يتعامل بها في حرج أمام المجتمع ونبذٍ من أفرادهِ.

فهو لا يبالي بكل ذلك، ويأخذ في شربها باكراً، وتكون عند ذاك حرفه، وإن وصل حد الطرب مزجها بالماء، حتى لا يداخله السكر، في جوٍ غنائي، تؤدي فيه المغنية بصوتها المثير المميز أغنية تُعرفُ ضوابط إيقاعاتها فهي تارة ترفع صوتها، وتارة أخرى تخفضه، وكأنّه طنين ذباب وهو تشبيه غير مناسب جاء في نهاية مقطعته.

أسلوبه مثّل اندماج لتحدي السلطة، وإطلاق لرغباته من عنانها بصورة مبتكرة، جريءٌ، معاصر لزمانه، فائق التألق، لولا التشبيه الأخير.

فألفاظه تخبرنا بأنه ليس من عشاق الخمر على وجه التحديد، بل فكرة فرض ضوابط وقوانين عليه، وهو رجلٌ حرٌّ في داخله وظاهره وهذا ما يفسره سلوكه، أمر يثير اهتمامه ويستفزه لتحدي ضوابط المجتمع، وكأنّه مراهق لا يأبى لأمرٍ غير ما يصدر عن ذاته، وربما تحديه للسلطة لم يكن جدياً في بادئ الأمر وما أفرزته الأحداث من أمور بشكل عفوي – معاقبته من قبل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) وعلناً أمام الجمهور هزه – عزز من شغفه بالخمر والجهر بشربها تحدياً لسلطة الخليفة فهو – الشاعر – لم يسعَ ليكون علامة فارقة في عالم تعاطي الخمر، بقدر ما أراد أن يكون علامة فارقة في عالم الحرية والرجولة وبشكل تلقائي عفوي؛ لأنه في حقيقة الأمر هو شخص مجبول على الشجاعة والشهامة والصخب في إطلالة الوجود الإنساني،

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص41-42.

وخاصة في الحرب، ولم تكن إطلالته رياءً وزينةً وإنما شغف حقيقي ينبع من سويداء القلب نفسه.

فهناك الكثير الطيب من حيثيات وجوده فلماذا يكون التركيز على شرب الخمر ولفت النظر لهذا السلوك فقط؟ لذا جعل منه – شرب الخمر – بوقاً مدوياً لتحدي سلطة القانون والدين، باعتباره – أي شرب الخمر – سلوك شخصي بحت من وجهة نظره.

فمقطوعته تنطوي على الفن والهندسة الصياغية المميزة بالاضافة الى شغف الحضور من خلال تحدي السلطة فجاء بمقطوعة تنطوي على الإبداع والتألق الفني.

ولعل أبياته الآتية تؤكد ما ذهب اليه إذ قال:–

ألا سـقِّني يـا صـاح خمـراً فـإنني ... بما أنزلَ الـرحمنُ فـي الخمـر عـالمُ
وجُـدْ لـي بهـا صِـرْفاً لأزداد مأثمـاً ... ففـي شـربها صِـرْفاً تَـتِمُّ المـآثمُ
هـي النـارُ إلاّ أننـي نلـتُ لـذةً ... وقضّـيْتُ أوطـاري وإن لام لائـمُ[1]

وفي حوار لشاعرنا مع القائد سعد بن ابي وقاص، عقب واقعة القادسية، يؤكد وجهة نظرنا في الأمر، إذ قال سعد لأبي محجن بعد سؤاله أمرأته عنه:– "والله لأعاقبنك على الخمر أبداً. فقال:– وأنا والله لا أشربها أبداً، إنما كنتُ أشربها إذ كنتم تُطهّرونني"[2].

وقال شاعرنا في ذلك:–

ألـم ترنـي ودعـت مـا كنـتُ أشـربُ ... من الخمر إذ رأسـي لـك الخيـر أشـيبُ
وكنـت أروي هـامتي مـن عقارهـا ... إذ الحـد مـأخوذ وإذ أنـا أضـربُ
فلمـا دَرَوْا عنـي الحـدود تركتهـا ... وأضـمرت فيهـا الخيـر والخيـر يطلـبُ
وقـال لـي النـدمان لمـا تركتهـا ... أألجيـدٌ هـذا منـكَ أم أنـت تلعـبُ
وقـالوا عجيـبٌ تركـكَ اليـوم قهـوةً ... كـأنّي مجنـون وجِلـديَ أجـربُ

(1) ديوان أبي محجن الثقفي: ص37.
(2) المصدر نفسه: ص40.

سـأتركها لله ثـم أذمهـا وأهجرُهـا فـي بيتهـا حيـث تشـربُ[1]

من هنا مثّل شربه الخمر صراع جنوني من وجهة النظر الموضوعية، ولكنه صراع نفسي وطاقة في حالة غليان لا يمكن كبتها بالمدِّ والزجر أمام الملأ من أجل سيادة الضبط والقانون في المجتمع على حساب شخصه من وجهة نظره.

فروحه المزمجرة الثائرة، فرضت نفسها على المتلقي على الرغم من مرور الأيام والسنين، فما كان إلا أن يتصدى لتلك البودقة البركانية في نفسه وينفثها شعراً درامياً. فلا دراما بلا صراع، وكان صراع شاعرنا مع السلطة وما تفرضه من عقوبة على سلوكه والذي يراه أمراً شخصياً بحت، ولا يحق للسلطة التدخل في خصوصياته، وحيث ان الصراع لابد أن ينشأ من نقطة، فإنه يتحتم ان تسبق هذه النقطة مقدمات، فكانت صراعه مع السلطة من جانب وتمسكه بشرب الخمر من جانب آخر، مقدمة ومعادلة صراع جامح أثمرت خمرياته الرائعة والتي حملت اشكالاً فلسفية وموضوعات كبرى متعددة الدلالات، فكانت محركاً لتعدد وجهات النظر في سيرة الشاعر، ونتاجه الشعري على حدٍ سواء.

ثالثاً: ترصيع الأبيات الشعرية بألفاظٍ قرآنية

رصدنا في بعض مقطعات ديوان أبي محجن الثقفي، وعلى الرغم من قلة ابيات هذه المقطعات ألفاظاً قرآنية واضحة، وهذا يدلل على إنهُ رجلٌ أعاد النظر أكثر من مرة في النص القرآني. وهذا ما يؤكد رأينا من إنه تعاطى مع الخمر تعاطياً شعرياً اكثر منه واقعياً. ونجد ذلك في قوله

قد يعلمُ الناسُ أنّا من سَراتِهمُ إذا سما بصرُ الرَعديدة الفَرِق[2]

(1) المصدر السابق نفسه، ص40-41.

(2) ديوان الشاعر: ص16.

فالتركيب اللفظي (سما البصر)، وهو إنْ يشخص بصر المرء من الفزع والخوف، مبهوتاً لا حِراك فيه قد أخذه من قوله تعالى في سورة إبراهيم (آية 42): {ليومٍ تشخصُ فيه الأبصار}.

ونجد ذلك أيضاً في قوله:-

قد يُقتِرُ المرءُ يوماً وهو ذو حَسَبٍ وقد يَثُوبُ سوامُ العاجِزِ الحمِقِ[1]

فلفظة يثوب، تعني النهوض والتجمع والكثرة حوله، وهي مأخوذة من قوله تعالى في سورة البقرة (آية 125): {وإذا جعلنا البيتَ مثابةً للناس}.

وأيضاً قوله:-

وقد أجودُ ومالي بذي فنَعٍ وقد أكُرُّ وراءً المُجْمَرِ البَرِقِ[2]

تركيبة الجملة (المجمر البرق) والذي يقصد بها ضيق الأمر أو الشيء على المرء، وهنا الضيق والشدة في الحرب، وإما البرق فهي بمعنى الشاخص البصر لأمرٍ جللٍ، أو لحيرة المرء في أمرٍ ما، وهي تركيبة أُخذت عن قوله تعالى في سورة القيامة (آية 7): {فإذا بَرِقَ البصرُ}.

وقوله أيضاً:-

وأهجُرُ الفعلّ ذا حُوْبٍ ومَنقصَةٍ وأتركُ القولُ يُدْنيني من الرَّهَقِ[3]

لفظة (الحوب) في هذا البيت مأخوذة عن قوله عز وجل في سورة النساء (آية 2): {إنه كان حُوْباً كبيراً}، وهي بمعنى الإثم.

وقال:-

أَغشى الصياحَ وتغشاني مضاعفةٌ من الحديد إذا ما بعضُهم خَنَسا[4]

(1) ديوان الشاعر: ص20.

(2) ديوان أبي محجن الثقفي: ص21.

(3)ديوان أبي محجن الثقفي ، ص22.

(4) المصدر نفسه: ص26.

هنا لفظة (خَنسا) مأخوذة عن قوله تعالى في سورة التكوير (آية 15):- {فلا أقسم بالخُنّس}. وقصد بها الشاعر في بيته المتقدم تأخر الرجل وتباطئه عمّا في رقبته من مسؤولية.

وقال في ذات الإطار:-

وكيف وقد أعطيْتُ ربّي مواثِقاً أعودُ لها، واللهُ ذو العرشِ شاهدي
ستأترُكُها مذمومةً لا أذوقُها وإن رَغِمتْ فيها أنوفُ حواسدي[1]

لفظة (رَغِمَتْ) في البيت الثاني مأخوذة عن قوله تعالى في سورة النساء (آية 100):- {مُراغماً كثيراً وسَعَة}. وهي بمعنى رغم أنفه إذا ذُل وسقط في عيون الناس.

لقد قدم الشاعر في أبيات هذا المحور صور تشكيلية متألقة، عبّرت عن ذاته المبدعة من خلال إنتاج صور حسية واستعمال لغة تصويرية كان لها الأثر في تحديد طبيعة الشاعر الحساسة وعلاقتها بروعة خياله وحسن استثمار هذا الخيال في النص من جهة وعلاقته بمشكلاته الاجتماعية وما يتعلق بالفهم الخاطئ لشخصه من جهة أخرى.

وتكمن في أبياته قوة الشخصية المبتكرة وملاءمتها لصنعته الشعرية التي هي في حالة تألق من حيث الفروسية والشجاعة، وفي الوقت نفسه هي بين حالة مد لنصرة الخمر وشرب الخمر مرة، ومد التوبة عنها ونبذها ونبذ من يتعاطها مرة أخرى.

فقدرته الشعرية تتجسد في تعبيراته العاطفية الصادقة وقوة سبكه، الذي يتمتع بضياء الجمال الخلاّق والإبداع الذي يُشار إليه بالبنان، فليس بالغريب أن يستدعي خياله الفاظاً وصوراً من القرآن الكريم، وهو الشاعر المُبدع المؤثر في واقعه.

الخلاصة:

(1) المصدر نفسه، ص36.

لقد حاولنا من خلال هذا البحث إزالة اللبس الذي صبغ سيرة شاعر مجيد وفارس مغوار، ليكون دفاعاً موضوعياً عن رؤيا الشاعر في مفردات حياته، وإضاءة لما قدمه من إبداع شعري مميز، وقدرة تعبيرية متألقة في عالم الشعر الإسلامي الذي تميز بمحدودية أغراضه، ومحاولة تأطير إبداع الشاعر وما يتوافق والدين الاسلامي الحنيف، مما يحدُ من تألق الصنعة الشعرية، ويضعف قدرة الشاعر الإبداعية.

لكن الشاعر أبو محجن الثقفي خرق قيود المجتمع وتقاليده، فجعل من اللغة عبيراً مُشاعاً يتنفسه الجميع بعذوبة وطرب، فبنى بها أفكاره بطريقة هندسية مبتكرة وبإيماءات دالة، لأن لغته كانت لغة الخيال والانفعالات النفسية الموحية والتي خرجت بصورة ملونة وبإيقاعات موسيقية مدوية، فدفع بإجادته لهذه الصنعة النص الشعري نحو قمة الفن الرفيع، وحول بتمكنه اللفظة وعلاقاتها المجازية والدلالية والتركيبية الى صور فنية تتعادل فيها الحقيقة والمجاز، وخرج باللغة الى محيطها الفني الواسع.

فلقد عبّر عن أفكاره ومشاعره ورفضه لفرض السلطة على سلوكه بمعايير خياله المتفجر بصورة مستمرة، فخياله مثّل قوة تركيبية سحرية فرضت وجودها على النص، وعلى المتلقي في آن واحد.

وهذا لا يتأتى إلا لصاحب الخيال المبدع، لأن الخيال بطبيعته "يكشف لنا عن ذاته في خلق التوازن أو التوافق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة.. بين الإحساس بالجدة والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة، بين حالة غير عادية من الانفعال ودرجة عالية من النظام، بين الحكم المتيقظ أبداً وخبط النفس المتواصل والحماس البالغ والانفعال العميق"[1].

فالشاعر صور تجربته التي خاضها مع السلطة وما ساد في المجتمع من ضوابط وتعاليم إسلامية عن طريق الخيال الذي "يحملنا على التأثير لتجربته ومعايشة أحاسيسه دون الوقوف منها موقف المتفرج، فوظيفة الشعر ما هي الا أن يكسبنا قوة الخيال التي نتصور بها التجارب ذات المغزى العميق"[2].

---

(1) مبادئ النقد الأدبي: 1010. وتشاردز، ص312.

(2) قواعد النقد الأدبي: لاسل كرحبي، ترجمة: محمد عوض محمد، ص63.

لذا جاء البعد الاستعمالي لألفاظه وتراكيبه مثيراً وداعياً للإقناع فدلالاته جاءت من منظار مقامي مقاصدي، وبلغ حد التكامل في عملية الكشف عن فلسفته الإنسانية من خلال أنساق معينة في المكون البنائي، وكانت موسيقاه في النص موحية مؤدية بصورة مؤثرة في المتلقي. وظهرت أهميتها في إبراز وكشف الدلالات والمقاصد في النص.

فكانت عنايته واضحة في لغة خطابية تواصلية جميلة، ونتاجه شاهد على نشاطه وإبداعه وتألقه في عالم أدبي محدود لذا كان لابد لنا من دراسة ألفاظه وسياقاته التعبير لأنها فرضت وجودها في عالم الشعر والإبداع.

ونرجو أننا قد أنصفنا هذا الشاعر الكبير، وقمنا بواجبنا اتجاهه واتجاه أدبنا العربي العظيم.

The creative expression between the fallouts of alcohol and the narcissism of heroism and pride in poetry of Abi Muhjn Al-thaqafi

Dailam Kadhim Sahal* **Malathion Natiq Alwan****

Abstract

Abo- Muhajin Al-thaqfi walked the path of creativity and loud his voice saw a sharp of collision fot the unity of humanity and promote the principles of islam , his poetry come in that era artistic work.

The privacy brought together equestrian and redemption for religion and the homeland , and the inviolation of the shara through the wine abuse and to explain it.

From here he made his poetry a giant library paradox indivinity poetry and courage the languages characterized by .

* Prof. Asst. / Baghdad University
** Prof. Asst. / Al-Iraqiya University

Key words : Adoration؛ gentle؛ sensation

References:

- Aleskry, Diwan 'Abi Mahjin AlThuqafii, dar alkitaab aljadidi, bayrut - lubnan, 1970, 620 .
- Lasil Karihibi, Qawaeid AlNaqd Al'Adbi, Tarjamatu: Muhamad Eawad Muhamad, dar sadir, birut, 2010 , 230 .